الخطر الابيض والخطر الاصفر

يرى بعض كتّاب الافرنج ان روسيا جنت على الجنس الابيض ما لم يجنهِ رجل ابيض على اخيهِ من قبل . فانها اقدمت على محاربة اليابان ولم تستعد لذلك كبرًا واستهانة حاسبة انها في اضعفها تفوق اليابان في اشدها وانها ستعقد الصلح مع اليابانيين في طوكيو عاصمتهم بعد اذلالهم ولا يلزم لذلك من الزمان اكثر مما قدر الانكليز لشرب الشاي في عاصمة الترنسفال ولكن الرياح جرت بما لا تشتهيهِ سفنها وعادت من العمعان وقد فقدت كل شيء سوى شرف جنديتها واظهرت للصفر ضعف البيض في نزالهم واشمرتهم بقوتهم المستكنة فيهم . وبناء على ذلك سيهبون من سباتهم العميق ويأخذون بالثار من البيض لقاء استخفافهم بهم واعتدائهم على املاكهم هذا الزمان الطويل . وهنا مصدر الخطر الاصفر

ولكن فئة اخرى من الكتاب ترى غير ذلك . ترى ان نتيجة الحرب الحاضرة كفّ يد الابيض عن الاصفر ليس الاّ اعتقادًا بان الميل الى السكون والمسالمة خلق من اخلاق الرجل الاصفر الجوهرية وطبع فيهِ يغلب كل تطبع . ومنهم المستر لنتش الرحالة كاتب هذه المقالة فانهُ نشرها في مجلة القرن التاسع عشر بعنوان "الخطر الابيض" وابان فيها انهُ ان وجد هناك خطر فهو الخطر الابيض اي خطر ابتلاع الرجل الابيض للاصفر وقد زال بالحرب الحاضرة . اما الخطر الاصفر فوهم من الاوهام او حلم في المنام . قال

تعدّ حرب روسيا واليابان فاتحة عصر جديد في تاريخ علاقتنا بالشرق ويرجح ان تكون نقطة انقلاب في مجرى الحوادث المستقبلة . هل خطر على بالنا نحن الغربيين الذين كثر تحدثنا بالخطر الاصفر ان نقابل بعين الشرقي بين الماضي والحاضر لنرى ماذا يقولهُ المشارقة عنا . فلا بد ان يكون قد رأى الخطر الابيض على ازدياد سنة فسنة منذ ابتداء علاقتنا بالشرق حتى الآن حين اشتد ساعد اليابان ونهضت تروم ايقافنا عند حدنا . وكل من خبر الشرق ولو قليلاً لا يعسر عليهِ تصور ما يظنهُ الصيني والياباني فينا وما يشعران بهِ من نحونا . واذا تذكرنا تاريخ الماضي ونظرنا اليهِ بعين خالية من الغرض لم يدهشنا سلوكهما لانهُ نتيجة لازمة لابد منها

قال المسيو اناطول فرانس" ان ما يؤديهِ الروس الآن في بحار اليابان ومنهول منشوريا انما هو ثمر سياسة الشره والقسوة التي اتبعوها في الشرق وثمر السياسة الاستعمارية التي جرت

اوربا كلها عليها ايضاً . وما يكفرون بذلك عن ذنوبهم وحدهم بل عن ذنوب العالم المسيحي كلهِ في خطتهِ الحربية والتجارية "

اما الخطر الاصفر الذي بات اشهر من ان يذكر بعد ما قال الكتّاب فيهِ ما قالوا وبعد الصورة التي صوّرها بهِ امبراطور الالمان — فانما هو رجع بالغيب او وهم من الاوهام . غير ان الخطر الابيض ليس في شيء من ذلك بل هو حقيقة قدّت من جسم قارة اسيا وصبغت بدم الرجل الاصفر . فانهُ لما دخل الروّاد والتجار الاولون بلاد الصين واليابان استقبلهم اهلوها على الرحب والسعة ورغبوا في معاملتهم بشرط ان يخضعوا لقوانين البلاد ولا يتعرضوا للشؤون الاجتماعية والسياسية . وبعد سقوط دولة منغ الصينية في القرن الخامس عشر أقفلت ابواب الشرق الاقصى في وجه كل اجنبي حتى القرن السادس عشر حين جعل السياح من اسبانيا والبرتوغال يرتادون الصين قصد الاكتشاف فكان الاهالي يرحبون بهم وسمح امبراطور الصين حينئذٍ لبعضهم بالاقامة في ثغر كنتون للاتجار ولكنهم طغوا وتجبروا وساء سلوكهم حتى اضطرّت الحكومة ان تبعد احدهم من كنتون واسمهُ سيمون اندرادا قصاصاً على ما ارتكب من الذنوب فسافر شمالاً ونزل في اموي ونتبو وتبعهُ غيرهُ اليها فعاثوا في البلاد سلباً ونهباً واغتصاباً فثار الصينيون عليهم وذبحوا مئات منهم واحرقوا عدداً كبيراً من سفنهم واصدر الامبراطور امراً بقطع كل علاقة معهم

وبعد ذلك أنفذت الامبراطورة كاترينا الاولى الروسية الكونت فلادسلافتش في مهمة الى بكين فاكرم امبراطور الصين وفادتهُ وعقد معهُ معاهدة تجارية ولكن الاهالي لم يشاؤوا معاملة الاجانب فابلغوا الروس انهم يكرهون التجارة الاجنبية لان بلادهم تخرج لهم كلّ ما يحتاجون اليهِ من حاجي وكمالي وانهم قانعون بما هم عليهِ لا يطلبون المزيد ولكن الروس ظنوا ان لهم حقاً في المتاجرة بينهم رضوا بذلك او لم يرضوا وحذا سائر الاوربيين حذوهم فيما بعد

ولنتجلِّ للقارىء الحقيقة في هذا الشأن لنسمع ما قالهُ صيني عن سبب قطع العلائق بين بلادهِ والغرب لاول مرة مخاطباً بهِ الاوربيين . قال

" لما جاء قومكم الاولون الى الصين لم يكن مجيئهم بدعوة منا فسمحنا لهم بالاقامة بيننا ولو لم نخلنِ بهم . وكنا نعاملهم ونتاجر معهم ما داموا خاضعين لقوانيننا . واول خلاف بيننا وبينهم وقع على مسألة لم تجرأوا انتم انفسكم على المدافعة عنها اعني بها سلوككم فان قسماً كبيراً من تجارتكم كان بالافيون وكنا قد رأينا ان شرب هذا العقار متلف لاجسام الاهالي مفسد لآدابهم فحظرنا الاتجار بهِ . ولكنّ تجاركم خرقوا القانون وجعلوا يهرّبون الافيون حتى

اضطررنا ان نداوي العلّة بانفسنا فضبطنا كلّ ما وجدنا منهُ واتلفناهُ . فعدّت حكومتكم عملنا هذا ذنباً وتحلت منهُ لها عذراً لان تشهر الحرب علينا . فعزمتم ارضنا وفرضتم علينا غرامة واخذتم منا جزيرة هنغ كنغ فرضخنا مكرهين لانا لم نكن دولة حربية . ولكن هل تظنون اننا لم نتألم ونستفظع الامر أو هل تظنون لما قامت كلّ دولة من دول اوربا ووضعت يدها على قطعة من ارضنا اننا لا نشعر لاننا لم نقاوم . ايراكم الصينيّ الذي يراجع تاريخ اتصالكم بنا في الستين سنة الماضية خيراً من زمرة لصوص او جماعة قرصان . ومَن منّا نحن الفريقين تراهُ الفريق المعتدي أنحن الذين كنا عاقدين النية على الاحتفاظ ببيئتنا الاجتماعية وعاداتنا وشرائعنا ونظام حكومتنا وصونها من شوائب التمدن الاجنبي ام انتم الذين حملكم حبّ الكسب التجاري على دخول بلادنا وادخال خميرة تمدنكم وآرائكم اليها مع بضاعتكم . واذا كنا قد اسأنا اليكم في تزاعنا معكم بعد ذلك فانّ لنا عذراً وهو محافظتنا على انفسنا . واغلاطنا — إن صحّ أن تسمّى اغلاطاً — انما هي حوادث مبنية على حقّ ثابت الدعائم ولكنّ اغلاطكم هي اعمالكم نفسها

تأملوا القيود التي قيدتم بها مملكة عريقة المجد اعتقدت قروناً طوالاً انها في مقدمة الممالك حضارة ومدنية . فلقد اكرهتمونا على فتح موانينا وثغورنا في وجه تجارتكم والسماح بادخال عقار مهلك لشعبنا واخرجتم رعايا كم المقيمين بيننا من تحت سلطة قوانيننا وقلكتم تجارة سواحلنا والآن تدّعون تجارة انهرنا . وكلما حاولنا مقاومة مطالبكم اضفتم اليها مطالب جديدة وزدتم اعتداء وخيلاء . ومع ذلك كلهِ تدعون انكم امم متمدنة ساقها النكد وسوء الطالع الى معاملة امم همجية "

اما الحوادث التي جرت في الصين في خلال الخمسين سنة الماضية فتشبه معاقبة الصينيين لقاتل ابيهِ بقطع قطّع من بدنهِ . فانا بدأنا تنفيذ الحكم بقطع هنغ كنغ وتلتنا فرنسا فاقتطعت الهند الصينية بلا اقل عذر . ثم روسيا فاقتطعت بورت ارثر ومنشوريا ثم المانيا فاقتطعت كياوشاو . وفي اوربا كثيرون يرون ان ذلك خير ما ينال الصين وانهُ لابد من تصيير اهلها غربيين في تمدنهم ونوع اجتماعهم رضوا بذلك او لم يرضوا . على ان الذي يجوب الصين ويقابل بين معيشة الاهالي الذين عاشروا الاوربيين وخالطوهم ومعيشة الاهالي الذين في داخلية البلاد يشك في ما اذا كان الاولون احسن حالاً من الآخرين . نعم ان وسائل الرفاه المادية زادت زيادة قليلة ولكن بعد ان دفع ثمن غالٍ بها . فان بعض نتائج مدنيتنا النزاع والمزاحمة والتعب وبعض نتائج المدنية الشرقية السلام والقناعة والراحة وليست هذه الراحة في شيء من كل الهمج والمتوحشين بل هي جزاء كدّ وكدح لا مثيل لها . ولا غنى

للذي يروم الوقوف على حقيقة ما في البلاد وما هم اهلها عليهِ من السياحة فيها

وقياس المدنية الغربية عند الصيني ما يرادُ منها في شنغاي وتيان تسن وهنغ كنغ وغيرها من الثغور المفتوحة لتجارة الاوربيين فهناك يرى الابنية الباذخة والشوارع الواسعة والجواري المنشآت كالاعلام والنظافة الخارجية التي اساسها الماء والصابون. هذا كلُّ ما يرادُ من الحسنات ثم ينتقل منها الى حانات المسكر واماكن الفسق والظلاعة فتحجب مساوئها وشرورها محاسن الاولى في اعين قوم لولا الانيون الذي اكرههم على اعتيادهِ لكانوا من اهل الصحو والاعتدال. فان شوارع المدن المذكورة وغيرها ملأى من حانات يجرع قاصدوها المسكر على نغمات بيانو تلعب عليهِ عاهرة من العواهر حتى يخيل للصيني الذي يشاهد ذلك ان السكر والدعارة اعظم مايتسلى بهِ الاوربي. ولا يسع شعباً هو ارق شعوب الارض جانباً واوفرها ادباً واكثرها تجملاً ولطفاً الاَّ ان يقابل اخلاقهُ هذه بسلف الاوربيين الذين يعاشرهم وخشونة طباعهم وشدة خيلائهم. ثم انهُ لايدرك معنى سعيهم في اخراجهِ عن مذهب كنفوشيوس وبوذا ونقائصهم ورذائلهم اكثر جلاء من الصبح لذي عينين. وهو بعد طعنات المرسلين والمبشرين خطرٌ عليهِ وعلى بلادهِ وحقهُ ان يعدهم كذلك لان المبشرين بانجيل السلام لم يكونوا في غالب الاحيان سوى ممهدين للقلاقل واغتصاب البلاد من اهلها

اما اليابان فلم يكن اهلوها اقل من الصينيين اكراماً اضيوفهم من رواد وتجار فانهم اكرموا وفادة المبشرين بينهم من عهد القديس فرنسيس زفير في اواسط القرن السادس عشر ولم يغيروا معاملتهم لهم حتى جدل المرسلون يتعرضون للسياسة او حتى اشتبه الاهالي في تعرضهم لها

وفي سنة ١٨٥٣ نزل الكومودور بري الاميركي الى يوكوهاما قصد الاتفاق مع اليابانيين على فتح بعض ثغورهم للتجارة الاجنبية. فانقسم ولاة الامر منهم الى قسمين قسم يرئسهُ البرنس ميتو وكان من رأيهِ رفض ماطلبهُ الكومودور بري قائلاً انهُ لما كانت التجارة غرضهُ وغرض قومهِ فسوف يخربون البلاد تدريجاً ويعاملونا كيف شاؤوا وربما انتهت الحال بابتلاعهم اليابان. فاذا لم نطردهم الآن فلن تسنح لنا فرصة اخرى لطردهم في مستقبل الزمان. واما القسم الآخر فكان زعيمهُ الشوغن فقالوا ان اليابان لاتقوى على مقاومة الغرب وان افضل خطة تجري عليها عقد المعاهدات باحسن مايمكننا من الشروط حتى يأتي يوم نقتني فيهِ سلاح الغربيين ونحسن استعمالهُ. وعلموا ان الحق لاينفع مالم تظاهرهُ القوة. فرجح قولهم وعقدت معاهدة بين الشوغن والكومودور بري سنة ١٨٥٤ واخرى سنة ١٨٥٧. وفي السنة التالية عقدت معاهدة بين انكلترا واليابان اشترطت انيابان فيها على انكلترا ان لاتدخل اتيوناً الى

بلادها . وتلت انكلترا غيرها من الدول الاوربية

وأول قتال بين اليابانيين والفريين جرى سنة ١٨٦٣ حين أسكتت مدافع اليابانيين وأُغرقت ثلاث من سفنهم وكانت نتيجة تلك المعركة اقناع اليابانيين باقتباس سلاح خصومهم واقتباس التمدن الذي يقتني ذلك السلاح . وهنا كل الفرق بين هذين الشعبين الصيني والياباني فان الاول اتخذ السياسة سلاحاً لهُ على ضعفها واما الثاني فانهُ ادرك السبيل الوحيد الى حفظ استقلاله وهو السلاح الماضي ورأى في اخضاع انكلترا للهند واستيلائها عليها عظة وعبرةً لاتبرحان عن بالهِ . ولم يفعل اليابانيون ما فعلوا انجاباً بمدنيتنا او علومنا او فنوننا او عاداتنا او مذاهبنا او آدابنا بل دفاعاً عن انفسهم من الخطر الابيض . وليس في تاريخ العالم ما يماثل شدة اندفاعهم وقوة ثباتهم في قضاء مآربهم وتنفيذ الخطة التي رسموها لانفسهم . ومن دلائل فطنتهم وامتلاكهم لاهوائهم انهم احجموا عن مقابلة قوة الغرب بالقوة حتى اتموا استعدادهم لذلك . فانهم لما شهروا الحرب على الصين علموا ان في طوقهم اذلالها على اهون سبيل ولما أُمروا باخلاء بورت آرثر خيف ان يتمرد الجيش ولا يصدع بالامر ولكن المارشال اوياما بذل كل مالهُ من النفوذ الشخصي حتى تمكن من حمل الجيش على اطاعة الامر واخلاء القلعة

وفي سنة ١٨٧٣ كانت الحرب بين روسيا واليابان على قاب قوسين او ادنى بسبب كوريا فان الوفد الياباني عاد من اوربا مدهوشاً بما كانت الدول وخصوصاً روسيا تبذلهُ من الاستعداد الحربي فكتب تشيمنشي تقريراً قال فيهِ ان روسيا بتوسيع املاكها جنوباً باتت الخطر الاعظم على اليابان وعليهِ فان الغاية الاولى التي يجب ان ترمي سياسة اليابان اليها انما هي صدّ روسيا عن التقدُّم في كوريا . ورأى كثيرون من رجال الحكومة اليابانية حينئذٍ ان خير السبل الى بلوغ ذلك المرمى ان تشهر الحرب على روسيا حالاً ووضعت الخطط لغزو كوريا واحتلالها ولكنَّ الاكثرية رأت انهُ لم يئن الاوان لذلك وفازت برأيها قائلة انهُ اذا تأنت اليابان نالت ما تتمنى من روسيا . ومن ذلك العهد وضع كلُّ ياباني نصب عينيهِ محاربة الروس عاجلاً او آجلاً . وكانت حرب الصين تجربة أسفرت عن نتيجة مرضية لليابانيين وهي معرفتهم انهم اصبحوا اهلاً لتقلُّد سلاح الغربيين واستعمالهِ ولكن خنامها وقع وقع الصاعقة في قلب الامة كلها لاتخاذها في ميدان السياسة وحرمانها من بورت آرثر ثمرة انتصارها ظلماً وعدواناً بمكيدة دبّرها بعض الدول الاوربية فزادت خوفاً على خوف من الخطر الابيض وباتت تحسب لهُ الف حساب

هذا وقد كان اشتراك اليابانيين في الحملة الاوربية المختلطة التي وجّهت على الصينيين

سنة ١٩٠٠ كانياً ايرينا ما بغتة الجيوش اليابانية من الدربة في ضروب القتال. وقد كنت في اليابان قبل اعلان الحرب الحاضرة بسنة فرأيت هناك دلائل كثيرة على ان الامة كانت تستعدّ لهذه الحرب الهائلة وانها تتوقع اعلانها في القريب العاجل. ثم غادرت البلاد وانا موقن ان الحرب واقعة لا محالة وانه لا تمضي شهور كثيرة حتى يستطير شررها ويثور غبارها. ولكني عدت فغيّرت رأيي وانا عائد الى بلادي بطريق سيبيريا وروسيا لما رأيت الروس على تعدد طبقاتهم مجمعين على القول ان لا حرب وان اللعبة التي يلعبونها في الشرق الاقصى مجرّد تهويل او ما يسميه لاعبو البوكر "بلف" فلعبوا لعبتهم ولكنهم تمادوا في تهويلهم الى حدّ ان لم تجز حيلتهم على خصومهم فسقط في ايديهم وعادوا من لعبتهم بخفي حنين

ولما أطلق اليابانيون مدافعهم الاولى في هذه الحرب على السفينتين فارياق وكورتز الروسيتين في ميناء شملبو كان لاطلاقها معنى غير اعلان الحرب على روسيا وهو ان الشرقيين قاموا يناهضون الغربيين بعد طول الاستعداد لمنع اعتدائهم عليهم وانهم كالوا للكومودور بري الاميركي بالكيل الذي كال لهم وعقدوا النية على صدّ الخطر الابيض بالقوّة. وقد دلّت حوادث السنة الماضية على ان اليابانيين لم يقدروا قوتهم فوق قدرها. ومهما يكن هناك من الريب في نتيجة المعركة البحرية عند كتابة هذه السطور لا سيما بعد ما ابداهُ الاميرال روجستفنسكي الروسي من المهارة في ايصال اساطيله الى مياه الشرق الاقصى فلا يكاد احد يرتاب في نتيجة الحرب الاخيرة. فاذا اصرّ الروس على مداومة الحرب فلا بدّ ان يصيب فلادفستوك ما أصاب بورت آرثر وينالهم في خربين ما نالهم في مكدن

ومما لا يكاد يشكّ فيهِ ايضاً ان من شروط الصلح اخلاء روسيا لمنشوريا وردّ جزيرة سغالين الى اليابان. وقد اخذت نتائج هذه الحرب تبدو على الصين من كلّ جانب وزادت الحركة الائلة الى سير الصين في خطة اليابان. وقصد اليابان في السنة الماضية عدد عظيم من التلامذة الصينيين لم يسبق لهُ مثيل ففي توكيو وحدها اربعة آلاف تلميذ على حين ان عدد التلامذة الصينيين في انكلترا لا يزيد على ٨٠ تلميذاً مع عظم التجارة التي بين انكلترا والصين. وفي الصين عدد كبير من الضباط اليابانيين يعلمون الجيش الصيني ويدربونهُ ويديرون ترسانات الحكومة. فتأثير هؤلاء والتلامذة الصينيين عند رجوعهم الى بلادهم في جمهور الامة الصينية لا بدّ ان يكون عظيماً. ومع ان نار الحرب مستعرة بين روسيا واليابان فقد زادت حركة التجارة ما بين الصين واليابان زيادة تذكر مما ينبئ بعظم اتساعها بعد الحرب. ويؤمل اليابانيون ان ينالوا امتيازات من الصين بالتعدين ومدّ سكك الحديد في بلاد فوكيان

فياضاً يردّ منشوريا اليها . وبلاد فوكيان هذه هي البلاد المواجهة لجزيرة فرموزه على ساحل الصين الشرقي وهي ضمن دائرة نفوذهم

على ان من نتائج الحرب التي لا بدّ منها تمكين ربط الوداد بين تينك السلطنتين الاسيويتين وتقريب الواحدة منهما الى الاخرى . وحالما يشتدّ ساعد الصين وتصبح من الدول التي يعتدّ بمحالفتها لا يبعد ان نرى بينها وبين اليابان محالفة هجومية دفاعية . وظاهر للعيان انهُ قد آن الاوان لان تردّ الدول يدها عن الشرق الاقصى ولا تمدها فيما بعد لامتلاك بقاع منهُ . ولا يبعد ان تفضي الحال الى اكثر من ذلك عاجلاً او آجلاً فيصلنا انذار بان نخلي واي هاي واي بعد طرد الروس من بورت آرثر وتنذر المانيا باخلاء كياوشاو ولعمري ماذا يفعل الالمانيون لو جاءهم هذا الانذار وما هي القوة التي يقاومون اليابان بها . وقس علينا وعلى المانيا فرنسا

فيظهر من ذلك ان الخطر الابيض في شرق اسيا سائر الى الزوال ان لم يكن قد زال وان قاعدة منرو(١) التي يجري الاميركيون عليها من جهة اميركا مطبوعة في صدور مئات الالوف من الاسيويين من جهة اسيا ونافذة فعلاً ولو لم يصرح بها قولاً . وسيرى كثيرون في ذلك تحقيقاً لاعظم مخاوفهم من الخطر الاصفر . قال المسيو اناطول فرانس " وسنرى عن قريب خطراً يتهددنا . فاذا وُجد فمن أوجدهُ . فليس اليابانيون هم الذين جاءوا يفتشون عن الروس ولا الصفر هم الذين يفتشون عن البيض . وان كنا قد درينا بالخطر الاصفر الآن فان الاسيويين دروا بالخطر الابيض منذ زمن طويل . ألم يكن ذلك القصر الصيني الى الارض ومذابح بكين وتقطيع اوصال الصين اسباب قلق واضطراب للصينيين . ام كان اليابانيون آمنين على انفسهم ومدافع بورت آرثر مصوبة اليهم . فقد ولدنا نحن الخطر الابيض وهو ولد الخطر الاصفر "

وكما ان الخطر الابيض ولد الخطر الاصفر فكذلك موت الاول يجلب موت الثاني . فان من يلم بتاريخ الصينيين ويعلم حق العلم ما طبعوا عليهِ من المسالمة وكره المخاصمة يضحك استهزاء بمن يقول انهم يغيرون ذلك الخلق فيهم وينقلبون من تلك السجية الى ضدها فيصيرون محاربين بعد ان كانوا مسالمين لان ذلك يستلزم تغييراً جوهرياً في طبع الامة كلها والصينيون لا يقبلون تغييراً . انتهى

---

(١) احد رؤساء الولايات المتحدة الاميركية وقاعدته اميركا للاميركيين